

وحسبوها جَنَى حُلْوِ الْجَانِي
 وتركوا الدين من حُبِّ الدَّانِ
 وغَيْدِ والغواني والأغاني
 ومشغوفين بالبيض الحسانِ
 ترى كَلًّا كمنطلق العنانِ
 بعينٍ أخرجتْ ظَبْيَ القنانِ
 أرينَ الخَلْقَ أفعالَ السنانِ
 تفوق بلحظها رُمَحَ الطَّعانِ
 سوى الله الذي مَلَكَ الأمانِ
 أضاعوا الدين من تلك الأمانِ
 ويغتاضون من تخلص عاني
 وفتن الدهر تنمو كل آنِ
 كريم قادر كهف الزمانِ
 إلى الله الحفيظ المستعانِ
 بما شاهدتُ فتناً كالدخانِ
 أذَى أم هل لها شأنِ كشاني
 وقسيسين أصل الافتنانِ
 كأن غداءهم فحشُ اللسانِ
 وتمطرُ مُقلتي مثل الرثانِ
 وسبَّ المصطفى بجر الحنانِ

إلى الدنيا أوى حزبُ الأجاني
 نسوا من جهلهم يوم المعادِ
 تراهم مائلين إلى مُدامِ
 وكم منهم أسارى عَيْنِ عَيْنِ
 لهنَّ على بعولتهن حُكْمُ
 دماء العاشقين لهنَّ شغلُ
 ومن عَجَبِ جُفونٍ فاتراتُ
 بناظرة تصيد الناسَ لمحًا
 وأتَى الأَمَن من تلك البلايا
 فعشَّاق الغواني والمثاني
 يَصُدُّون الورى من كل خيرِ
 عمَايات الرجال تزيد منهم
 وما من ملجأ من دون ربِّ
 فنشكو هاربين من البلايا
 جرتُ حزنًا عيونُ من عيوني
 فهل وجدتُ ثكالى مثلَ وجدي
 وكم من ظالم يبغي فسادًا
 تفاحشهم تجاوزَ كل حدِّ
 فكنتُ أطلعنَّ كتابَ سابِّ
 رأينا فيه كَلِمًا مُحَفِظَاتِ

ونار الغيظ صارت في جناني
أقرُّ العينَ بالخِصم المُهَانِ
وعزَّتنا لديهم كالرَّهَانِ
رقيقِ الشفرتين أخِ السنانِ
ورمَحِ ذابِلِ وقنا البيانِ
فُنخرجه بآياتِ المِثَانِ
ومَقَّتُ الضرَّتَيْنِ مِنَ العِيَانِ
ولكن سَبَّهم صَلَّى جناني
وليثُ اللهُ ليثٌ لا كضَانِ
وصورتهم كذبي حُبُّ مُقَانِ
من التقوى وبطنُ كالجفَانِ
يُري كالمرفهات لظى اللسانِ
على البدر المطهر من عُثَانِ
هويتَ كذي اللبانة في الهوانِ
أناجيلَ النصارى كالأَتَانِ
وتهمذي مثل عادات الأَدَانِ
وإيمانًا بتصدق الجنانِ
وأعرضتم عن الزهر الحسانِ
على مخضرة قاع هجانِ
فرائدَ زانها حسنُ البيانِ

صبرتُ عليه حتى عيلَ صبري
وتأتي ساعةٌ إن شاء ربي
أخذنا السبَّ منهم مثلَ دينِ
سنعشاهم ببرهان كعَضْبِ
بفأسٍ نختلي تلك الخَلَاتَا
بجمجمة العدا قد حلَّ غُولُ
لنا دين ودينا للنصارى
سئنا كلَّ نوعِ الضيم منهم
سعوا أن يجعلوا أسدًا نعاَجًا
ووثبُتُهم كسرِحانِ ضَرِيٍّ
وباطنهم كجوف العير قَفْرُ
أرى وغلاً جهولاً وابنَ وغلِ
هريرُ الكلب لا يحثو بنبحِ
ألا يا أيها اللُّحزُ الشحيحُ
وما تدري الهدى وحملتَ جهلاً
تُنضنضُ مثلَ نضنضة الأفاعي
هلمَّ إلى كتابِ اللهِ صدقاً
شغفتم أيها النوكى بشوكِ
وآثرتم أماعزَ ذاتِ صخرِ
وما القرآنُ إلا مثلَ دُررِ

وما مسّت أكفُّ الكاشحينا
 به ما شئتَ من علمٍ وعقل
 يسكتُ كلٌّ مَنْ يعدو بضغنٍ
 رأينا درَّ مُزنته كثيراً
 وما أدراك ما القرآن فيضاً
 له نورانٍ نورٌ من علوم
 كلامٌ فائقٌ ما راقَ طرفي
 آيةُ الشمس عند سناه دخنٌ
 وأين يكون للقرآن مثلٌ
 ورثنا الصُّحفَ فاقتُ كلَّ كُتبٍ
 وجاءت بعدما خرت خيامٌ
 محتُ كلَّ الطرائق غيرَ برٍّ
 كأنَّ سيوفها كانت كنار
 إذا استدعى كتابُ الله مثلاً
 وسُلبتُ جرأةُ الإسناف منهم
 فمن عجبٍ أكبوا مثلَ ميّتٍ
 وأنزله مهيمناً حُدبياً
 وصارت عُصْبُهم فرقا ثُبِيناً
 ومنهم من تلبّب مستشيطاً
 فأنتم قد سمعتم ما أصيبوا
 معارفه التي مثل الحصانِ
 وأسرار وأبكار المعاني
 بيكتُ كلَّ كذّابٍ وجاني
 فدينا ربّنا ذا الامتنانِ
 خفيرٌ جالبٌ نحو الجنانِ
 ونورٌ من بيان كالجُمانِ
 جمالٌ بعده والتّيّانِ
 وما للعللِ والسببِ اليماني
 وليس له بهذا الفضل ثاني
 وسبقتُ كلَّ أسفار بشأنِ
 وخُربت البيوت مع المباني
 وجذتُ رأسَ بدعات الزمانِ
 بها حرقتُ مخاريق الأديانِ
 فعَيَّ القومُ واستتروا كفانِ
 من الهول الذي حلَّ الجنانِ
 وقد مرّونا على لطف البيانِ
 ففروا كلهم كالمستهانِ
 فمنهم من أتى بعد الحرانِ
 لحرب الصادقين وللطعانِ
 بضعضة السيوف من الهوانِ

وكان جزاء سَلِّ السيف سَيْفًا
 إذا دارت رحي البلوى عليهم
 فطفقوا يهربون كمثل جين
 إذا ما شاهدوا قتلى كَقُننِ
 سراةً الحي جاءوا نادمينَا
 وأما الجاهلون فما أطاعوا
 سُقوا كأس المنايا ثم سيقوا
 فهذا أجرُ جهل الجاهلينا
 وما كان الرحيم مُذَلَّ قومٍ
 وهل حُدثت من أنباء أممٍ
 وكل النور في القرآن لكنْ
 به نلنا ثراتِ الكاملينا
 فقمْ واطلبْ معارفه بجهد
 أخطب عزة الدنيا الدنيَّة
 أترضى يا أخي بالخان حمقًا
 على بستان هذا الدهر فأسُ
 وكم عنقٍ تكسرها المنايا
 ترى في ساعة سُررًا لرجلٍ
 وإني ناصحٍ خَلِّ أمينٌ
 يكرمُ جاهلٌ قبل ابتلاءٍ

فذاقوا ما أذاقوا كالجبان
 فكانوا لهُوةً فوق الدَّهانِ
 فأخذوا ثم قُتلوا مثل ضانِ
 فرفعوا طاعةً علَمَ الأمانِ
 فرحم المصطفى بحر الحنانِ
 فأعدمهم فؤوسُ الاحتفانِ
 إلى نارٍ تلوِّحُ وجهه جانِ
 من الرحمن عند الاستنانِ
 ولكن بعد ظلم وافتنانِ
 رأوا قبحًا بأفعالِ حسانِ
 يميل الهالكون إلى الدخانِ
 به سرنا إلى أقصى المعاني
 وخَفَّ شرَّ العواقب والهوانِ
 أتطلب عيشها والعيش فانِ
 وتنسى وقت تبديل المكانِ
 فكم شجر يجاح من الإهانِ
 وكم كفٌ وكم حسنِ البنانِ
 وفي الأخرى تراه على الإرانِ
 ويدري نور علمي من يراني
 وقدرُ الحبر بعد الامتحانِ

فقلتُ احْسَأُ، يراني من هداي
 وإني نحو وجه الحبِّ رانِ
 ويطلبني خصيمي في المحاني
 وأرْناي جناني في جناني
 كفاني ما أرى نفسي كفاني
 وحبِّي صار لي مثل السُّبوانِ
 وصَبَّغْنَا بمحبوب مُقَانِ
 ونخلي فاقَ أفكارَ الأفاني
 مُشْعَشَعَةٌ بماءِ الاقترانِ
 وإن الله خلَّقني يراني
 ويُهْلِكُه كصيدِ مُسْتَهَانِ
 قريب قادر حبِّ مُدَانِ
 وإنا الكاسرون فؤوس خانِ
 وإنا الفاصلون من الأَدَانِ
 فنحن المبدرون ولا نُمَانِ
 ونحن المنعمون ولا نَعَانِ
 ولسنا قاعدين كمثل وانِ
 وذو حجر يرى وقت الرثانِ
 وتُبْنَا من ملاعبِ صولجانِ
 ويدري السرِّ من شدِّ البطانِ

وكفّرني عدوُّ الحق حمقاً
 صوارمه عليّ مسلّلاتُ
 وإني قد وصلتُ رياضِ حَبِّي
 هويتُ الحبَّ حتى صار روحي
 بوجه الحبِّ لستُ حريصَ مُلكِ
 عمود الخشب لا أبغي لسقفي
 ورثنا المجد من ذي المجد حقاً
 دخلتُ النار حتى صرت ناراً
 خموري منتفاة غيرُ كَدَرِ
 ولستُ موارياً عن عينِ ربي
 يُدْهِدُ رَأْسَ كَذَّابِ غيورِ
 وإنا الناظرون إلى قديرِ
 وإنا الشاربون كؤوس جدِّ
 وإنا الواصلون قصور مجدِ
 وأبدرنا من الرحمن بدرِ
 ونحن الفائزون كمال فوزِ
 وبارزنا العدا متسلحيننا
 وما جئنا الورى في غير وقتِ
 كخُدُروف ندحرجُ رأسَ عجزِ
 عريفُ فرسٍ نفسي عند حربِ

ولا تمضي عليه دقيقتان
 ونُعطى منه أجرَ الامتشانِ
 وأخرى نشرَبُ فوق القنانِ
 ملاذي عاصمي ممن جفاني
 مفرحةً كزرع الزعفرانِ
 وإلحادٍ وتحريف البيانِ
 ولا تهجُرُ فترجعُ كالمهانِ
 وإن الحر كالحاني يقاني
 وقد علّمتُ من أخفى المعاني
 وكم قول أسرَّ كمثل كانِ
 هضيم الكشح كالغيد الحسانِ
 ولا يدري سفيه كالسَّمانِ
 فلجَّ في سمِّها ودع الأمانِ
 فمُت كالمحرِّقِين وكنُ كفانِ
 منى للطالِبين قضاء ما بي
 فلا تُكفرُ وخَفَ ربَّ الزمانِ
 فقل ما شئت من شوق الجنانِ
 ولا نغتاز من تكفير خانِ
 لأثقال المطاعن واللَّعانِ
 يرئى رحمةً مما تراني

مكرُّ ينزلنَّ كمثل برق
 وإنا سوف نُوجرُ من مليك
 وكأسٍ قد شربنا في وهادٍ
 وهذا كله من فضل ربي
 أرى أشجار رحمته عظاماً
 وقومي كفروني من عناد
 فيا لعان لا تهلك عجولاً
 ووشكُ البين صعبٌ عند حرِّ
 ولا تعجب لقولي وادعائي
 وللرحمن في كلمٍ رموزُ
 وكم كلمٍ مهفهفة دُقاق
 فيدري الضامرات ذوو الضمورِ
 فإن تبغي الدقائق مثل إبرِ
 وإن تستطلعنَّ أنباء موتي
 وبذلُ الجهد قانون قديم
 وإني مسلم والسُّلم ديني
 وإن أزمعت تكفيري وعذلي
 ولا نخشى سهام اللاعنينا
 جنحنا كاهلاً منا ذلولاً
 فإن شاء المهيمن ذو جلال

وفي فمِّي لسانٌ غيرُ أني أحبُّ جوابَ ربِّ مستعانِ
وآخرَ كلمنا حمداً وشكراً لربِّ محسنِ ذي الامتنانِ

ومن اعتراضات الواشي الضال، الذي ينوم بنعاس الضلال، اعتراضٌ بنى عليه عقيدته الباطلة في كتابه "التوزين". وتفصيله أنه رأى في القرآن الكريم آية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾*، فتلقّف لفظَ الروح كالشحيح، وأراد أن يستنبط منه نزول المسيح، بل أن يثبت ألوهيته كالوقيح، فكتبه مستدلاً كالمبطلين الفرحين.

أما الجواب فاعلم أن هذه الآية لا تفيده أصلاً ولا يثبت منها شيء إلا حمقه وجهله وكونه من السفهاء المستعجلين. ولا يخفى على الفضلاء الأعلام أن تأويل الروح بعيسى في هذا المقام دجلٌ وافتراء، بل جاء في كتب التفسير أنه جبرائيل عليه السلام، أو ملكٌ آخر على اختلاف الروايات كما لا يخفى على الناظرين. ثم منطوق الآية يبدي بالتصريح ويحكم بالتنقيح أن هذه الواقعة متعلقة بالقيامة ولها كالعلامة، فإن الله تعالى ذكر هذه القصة في ذكر قصة الجنة ونعمائها العامة، ثم صرح بتصريح آخر وقال: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾، ولفظ ﴿اليوم الحق﴾ في القرآن بمعنى القيامة، ويعلمه كلٌ خبير أمين. فانظر كيف بيّن أنها واقعة من وقائع يوم الدين، ثم انظر كيف يفترون الذين في قلوبهم مرض ولا يخافون الله وما كانوا متقين.

فالحاصل أن الآية لا تؤيد زعم هذا الواشي بل تمزّقه، وبها يقع القول عليه وتجعله الآية من الكاذبين. فإنه يقول إن عيسى إله وابن إله، ويقول إن الروح هو الله وعينه، والآية تبدي أن هذا ميينه،

وتبدي أن الروح الذي ذُكر ههنا هو عبد عاجز تحت حكم الله وقدره، وما كان له خَيْرَةٌ في أمره، وإن هو إلا من الطائعين، وما كان له أن يشفع من غير إذن الله، لأن الله عَلَّمَ قال في هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^{٥٩}، وأشير في آية: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^{٦٠}، إلى أنه تعالى لا يعطي هذا المقام المحمود إلا نبيّه وصفيّه محمدًا المصطفى خير الرسل وخاتم النبيين. وألقي في روعي أن المراد من لفظ الروح في آية ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ جماعةُ الرسل والنبيين والمحدثين أجمعين الذين يُلقى الروح عليهم ويُجعلون مكلمين.

وأما ذكرهم بلفظ الروح لا بلفظ الأرواح، فاعلم أنه قد يُذكر الواحد في القرآن ويراد منه الجمع وبالعكس، سنّة قد جرت في كتاب مبین. وذكرهم الله بلفظ الروح الذي يدل على الانقطاع من الجسم ليشير إلى أنهم في عيشتهم الدنيوية كانوا قد فنوا بكل قواهم في مرضاة الله، وخرجوا من أنفسهم كما يخرج الأرواح من الأبدان، وما بقي لهم النفس وأهواؤها، وكانوا لا ينطقون من الهوى بل بوحى يوحى، فكأنهم صاروا روح القدس فقط لا نفس معه ولا أعراضها.

ثم اعلم أن الأنبياء كنفس واحدة، لا يقال إنهم أرواح بل يقال إنهم روح، وذلك لشدة اتحادهم الروحانية وتناسب جوهرهم

الإيمانية، وبما أنهم فنوا من أنفسهم وحركاهم وسكناتهم وأهوائهم وجذباتهم، وما بقي فيهم إلا روح القدس، ووصلوا الله متبتلين منقطعين، فأراد الله أن يبين في هذه الآية مقام تجرُّدهم ومراتب تقدُّسهم وتطهُّرهم من أدناس الجسم والنفس، فسامهم روحاً إظهاراً لجلالة شأنهم وطهارة جناتهم، وأنهم سيُلقَّبون بهذا اللقب في يوم القيامة ليُريَ اللهُ خَلْقَهُ مقام انقطاعهم، وليميز بين الخبيثين والطيبين. ولَعَمْرُ اللهِ إن هذا هو الحق، فتدبَّروا في كتاب الله ولا تنكروا مستعجلين.

وأما عيسى عليه السلام فأنت تعلم أن القرآن لا يسمِّيها لها ولا ابن إله، بل يبرِّئه مما قيل، ويردُّ الأقاويل إفراطاً كانت أو تفريطاً ويقىم عليه الدليل، ويبيِّن أنه عبد ومن المقرِّين. وقال في مقام: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ..... وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[☆]، واشترط قول الظالمين بلفظ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ليُخرج به قومًا أصبى الحبُّ قلوبهم وهيَّج كروهم حتى غلبت عليهم المَحْوِيَّةُ والسُّكْرُ وحنونُ العاشقين، فخرجت من أفواههم كلماتٌ في مقام الفناء النظري والجذبات ❖ السماوي، وورد عليهم وارد فكانوا من الواهين؛ فقال بعضهم: ما في جُبتِي إلا اللهُ، وقال بعضهم: إن يدي هذه يد اللهُ، وقال بعضهم:

☆ الأنبياء: ٢٧ - ٣٠

❖ سهو، والصحيح: "الجذب"، كما تدل عليه الترجمة. (الناشر)

أنا وجه الله الذي وجهتم إليه، وأنا جنبُ الله الذي فرطتم فيه، وقال بعضهم: أنا أقول وأنا أسمع، فهل في الدار غيري، وقال بعضهم: أنا الحق؛ فهؤلاء كلهم معفون، فإنهم نطقوا من غلبة كمال المحوية والانكسار، لا من الرعونة والاستكبار، وحفت بهم سُكْرُ صهباء العشق وجذبات الحب المختار، فخرجت هذه الأصوات من خوخة الفناء لا من غرفة الخيلاء، وما نقلوا الأقدام إلى دون الله بل فنوا في حضرة الكبرياء، فلا شك أنهم غير ملومين. ولا يجوز اتباع كلماتهم وحرص مضاهاتهم، بل هي كلمٌ يجب أن تُطوى لا أن تُروى، ولا يُؤخذ الله إلا الذين كانوا من المتعمدين المجترئين.

وعجبتُ للنصارى.. ولا عجبَ من المسرفين، أنهم يقرّون بأن عيسى كان عبد الله وابن آدم، وكان يقول إني رسول الله وعبده، وحثّ الناسَ على التوحيد والاجتناب من الشرك، وانكسر وتواضع وقال لا تقولوا لي صالحا، ثم يجعلونه شريك البارئ ويحسبونه رب العالمين، ويقولون ما يقولون ولا يخافون يوم الدين. ويظنون أن المسيح صُلب ولعن لأجل معاصيهم وأخذ لإنجائهم وعُذّب لتخليصهم، وأن الخلق أحفظ الأبَ بذنوبهم، وكان الأبَ فظاً غليظ القلب سريع الغضب، بعيدا عن الحلم والكرم، مغتاظا كالحرق المضطرم، فأراد أن يُدخلهم في النار، فقام الابن ترحمًا على الفجار، وكان حليما رحيفا كالأبرار، فمنع الأبَ من قهره وزيادته، فما امتنع وما رجع من إرادته، فقال الابن يا أبتَ إن كنتَ أزمعتَ

تعذيب الناس وإهلاكهم بالفأس، ولا تمتنع ولا تغفر، ولا ترحم ولا تزدجر، فهذا أنا أحمل أوزارهم وأقبل ما أبارهم، فاغفر لهم وافعل بي ما تريد، إن كان قليلاً أو يزيد. فرضي الأب على أن يصلب ابنه لأجل خطايا الناس، فنجى المذنبين وأخذ المعصوم وعدّه بأنواع البأس كالمذنبين.

هذا ما قالوا، ولكن العجب من الأب الذي كان نشواناً أو في السُّبات أنه نسي عند صليب ابنه ما كتب في التوراة وقال لا أُهلك إلا الذي عصاني، ولا آخذ أحداً مكان أحد من العصاة، فنكث العهد وأخلف الوعد، وترك العصيين وأخذ أحداً من المعصومين. لعله ذهل قوله السابق من كبر السن وأرذل العمر وكان من المعمرين!

والعجب من الابن أنه كان يعلم أن معشر الجن سبق الإنس في الخطأ ولا ينتهجون محجة الاهتداء، بل تجاوزوا الحد في شباة♦ الاعتداء، ثم تغافل من أمر سيئاتهم، وما توجه إلى مواساتهم، وما شاء أن ينتفع الجن من كفارته، ويكون لهم حياة من إبارته، ونجاة من نار أبدية التي أعدت لهم، فما نفعهم إبارته ولا كفارته، وكانوا يؤمنون بالمسيح كما شهد عليه الإنجيل بالبيان الصريح، فكأن الابن ما دعا تلك المذنبين إلى هذا القرى وتقاعس كبخيل وضيعين. ومن المحتمل أن يكون للأب ابن آخر، صلب لتلك المعشر، بل من الواجبات أن

♦ سهو، والصحيح: "شباة"، وهي إبرة العقرب وحد كل شيء. (الناشر)

يكون كذلك لتنجية العُصاة، فإن ابناً إذا صُلبَ لنوع الإنسان مع قلة العصيان، فكم من حريٍّ أن يُصَلبَ ابن آخر لنوعٍ جَنِيٍّ الذي ذنبهم أكبر وأكثر، وإلا فيلزم الترجيح بلا مُرَجِّح باليقين، ويثبت بخُل الأب أو بخُل البنين. ولا شك أن فِكْرَ مغفرة قوم عادين والتغافل من قوم آخرين، عُذولٌ صريح وظلم مبین، بل يثبت من هذا جهلُ الأب المتأن. أما كان يعلم أن المذنبين قومان، ولا يكفي لهم صليب بل اشتدت الحاجة إلى أن يكون ابنان وصلبيان؟

لا يقال إن الابن كان واحداً فرضي ليُصَلبَ لنوع الإنسان، وما كان ابن آخر لكفارة أبناء الجانِّ. لأننا نقول في جوابه إن الأب كان قادراً على أن يلد ابناً آخر، وما كان كالعاجز الحيران، فلا ريب أنه ترك الجنَّ عمداً أو من النسيان، أو ما صلبَ ابناً ثانياً مخافةً بتره كالجبان. ومن المحتمل أن يكون الابن الآخر أحبَّ من الابن الأول إلى الأب التَّوَقَّان، وهذا ليس بعجيب عند ذوي الأذهان، فإنه قد يتفق أن الأصغر من الأبناء يكون أحبَّ إلى الآباء. ففكّر في هذه الآراء، وفي إله هو ذو بنات وبنين. وسبحان ربنا عما يخرج من أفواه الظالمين.

ثم بعد ذلك نرى أن آدم كان أول أبناء الله في نوع الإنسان، وقد أقرتْ أناجيل النصارى بهذا البيان، ومن المعلوم أن الفضل للمتقدم لا للذي جاء بعده كالمضاهئين. وقد خلق الله آدم بيده

وعلى صورته، ونفخ فيه روحه بكمال محبته، وأما المسيح فما كان
لَبِنَةً أَوَّلِ الْأَسَاسِ، بل جاء في أخريات الناس، وكان من المتأخرين.
ثم العجب أن إله النصارى ولد الابنَ ولم يلد البنات، كأنه
عاف الأختانَ أو كره أن يصاهر إلا الصِّفَات، أو لم يجد كمثلَه
الشرفاء السراة. فهل من أعجوبة في السكارى مثل أطروفة
النصارى، أم هل رأيت مثلهم من المغلّسين؟ والأصل الموجب
الجالب إلى هذه العقيدة الفاسدة والأمتعة الكاسدة، انهماكهم في
الدنيا مع هجوم أنواع العصيان وشوق نعماء الجنان مع رجس
الجنان. وأنت تعلم أن الشحَّ يُعمي عينَ رؤية الصواب، فلا يفتش
الشحيحُ العجولُ من الوهاد والحداب، بل يسعى مستعجلاً إلى
ملامح السراب، بمجرد استماع قول الكذاب، وإذا بلغها فلا يجد إلا
وادي التباب، فتضطرم نار العطش وتثب عليه كالذباب، ويحترق
القلب كاحتراق الجلباب، فيسقط على الأرض من غلبة الاضطراب،
ويطير روحه كالطير ويلحق بالميتين.

فمثلُ قوم اتكأوا على الكفارة من كمال الجهل والغرارة، كمثل
حمقى الذين كانوا من قوم متنصرين. طحطَحَ بهم قلةُ المال وكثرة
العيال، حتى كان الفقر حصادهم والتربُّب مهادهم، وطعامهم بعض
الأفاني وسحناؤهم كالشيخ الفاني، وكانوا من شدة بؤسهم
مضطرين. فقيض القدر لنصيبهم ووصبهم أن جاءهم شيخ شختُ
الحلقة، دقيق الشَّرْكة، حقيير السَّخنة، وكان توجد فيه آثار الخصاصة

والافتقار، وبيّن حاله الخذاء المرقّع وبلى الأطمار. فدخل وعليه بُردان رثان، وفي يده سُبحة كسبحة الرهبان، وكان سائلاً معترّاً، وشعثاً مغبرّاً، قد لقي متربّةً وضراً، حتى انثنى محقوقاً مصفراً. وكان لبسه كثير الانخراق بادي الإخرياق، وكانت هيئته تشهد على أنه ما أصاب هلة ولا بلة، وإن هو إلا معروق العظم ومن الطالحين. فوَجَّحَ حَلَقَتَهُمْ بِسُوءِ حَالِهِ وَأَفَانِيهِ مَقَالَهُ، لِيُخَدِّعَهُمْ بِزُخْرَفَةِ مَحَالِهِ، فَسَلَّمَ ثُمَّ كَلَّمَ، وَقَالَ هَلْ أَدَلَّكُمْ إِلَى مَكْسَبِ مَالٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ إِقْلَالٍ، فَتَكُونُونَ ذَوِي أَمْلاكٍ وَرِياضٍ، وَتَرْفَلُونَ فِي ذَيْلِ فَضْفَاضٍ، وَتُفَعِّمُونَ صِنَادِيْقَكُمْ كَمَا يَفْعَمُ الْمَاءُ فِي حِيَاضٍ، فَتَصْبِحُونَ مُتَنَعِّمِينَ؟ فَرِغُوا مِنْ حَمَقِهِمْ وَشِدَّةِ شَحْهِمْ فِي الْأَمْوَالِ، وَقَالُوا مَرِحَبًا لَكَ تَعَالَ تَعَالَ، وَدَلَّنَا إِلَى هَذَا الْمُنْوَالِ، وَإِنَّا نَفْعَلُ كُلَّ مَا تَأْمُرُ، وَنُحْضِرُ أَيْنَمَا تُحْضِرُ، وَنَسْتَجِدُّنَا مِنَ الْمُتَمَثِّلِينَ الشَّاكِرِينَ. فَفَرِحَ الْخُدَّعَةُ فِي قَلْبِهِ عَلَى قَيْدِ الصَّيْدِ وَإِصَابَةِ الْكَيْدِ، وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَقَطُوا فِي شَبِكَتِهِ وَاعْتَرَوْا بِخُدَيْعَتِهِ، وَجَاءُوا تَحْتَ فِخِّهِ بِصَفِيرِهِ وَزَفْرَتِهِ، فَكَلَّمَهُمْ بِأَحَادِيثِ مَلْفَقَةٍ، وَأَكَاذِيبِ مَزْخَرَفَةٍ، وَقَالَ مَا لِي يَأْخُذْنِي رَقَّةٌ عَلَيْكُمْ، وَيَهْوِي قَلْبِي إِلَيْكُمْ؟ لَعَلَّ اللَّهَ قَدَّرَ لَكُمْ حِظًّا فِي مَنْهَلِي، وَنُزُلًا فِي مَنْزِلِي، وَأَرَادَ أَنْ يُجْعَلَ لَكُمْ مِنَ الْمُتَمَوِّلِينَ. وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكُمْ مِنْ أَكْرَمِ جَرْتُومَةٍ وَأَطْهَرِ أَرْوَمَةٍ، وَمِنْ أَبْنَاءِ بُنَاةِ الْمَجْدِ وَأَرْبَابِ الْجَدِّ، وَالْآنَ أَرَاكُمْ بِصَفْرِ الْيَدِ، فَأُلْقِي فِي قَلْبِي أَنَّ أَرْحَمَكُمْ وَأَشْفَقَ عَلَيْكُمْ، وَأَقْوَمَ لِمَوَاسَاتِكُمْ وَدَفَعَ آفَاتِكُمْ، وَكَذَلِكَ وَقَعَتْ شِيْمَتِي، وَاسْتَمَرَّتْ عَادَتِي.

وخيرُ الناس من يَنفَعُ الناس، ويعين ذوي الفاقات والمساكين. وستَعْجُمون عُوْدَ دعواي وحلاوةَ جَنَائي، وإني لمن الصادقين. فكلوا هنيئاً مريئاً هذه المائدة الواردة، واستقبلوا هذه الدولة الحاردة، وخذوا تلك الغنيمة الباردة شاكرين. فاذهبوا سارعين مبادرين إلى بيوتكم، لَتَعْطُوا أَجْرَ قنوتكم، وأُتوني بما كان عندكم من أثاره مال بقي من زوال، من نوع حلية من ذهب كان أو فضة، أو حلي حيرانكم وخلانكم، ولا تتركوا شيئاً منها، وارجعوا مستعجلين. وإني أقرأ عليها كلمات كَرُوقية، وأعكف على هذا العمل إلى بضع ساعة، فتتهيج في الحلي ثورة مزيّة، وكلُّ حلية تربي وتنمو، والزيادات فيها تبدو، حتى تكون الحلي مئة أمثالها، وتنزل عليها بركات بكمالها وتُعجب الناظرين. ولا تعجبوا لهذا الحديث، فإن فيه سر كسر التثليث، فلا تسألوني عن دلائل كفلسفيين. العمل عجيب، والوقت قريب، وتكونون من بعد قوما متنعمين.

فاغترّوا بقول الكاذب المكّار، وحسبوا هذا العمل كالتثليث من الأسرار، بما لكزهم حمارُ الجهل الجذّار، وبترهم سيفُ الشحّ البتّار. فألقت في الضلالة الثانية الضلالات الأولى، وتكونت من ظلمة ظلمة أخرى، فمالوا إليه كما كانوا مالوا إلى عقائد المسيحيين. قالوا ما نشقّ عصا أمرك، وما نلغي تلاوة شكرك، وقد أتيتنا من الغيب كملائكة منجّين. فبادروا إلى بيوتهم في فكر قوتهم وتنضير سبروتهم،

وما شكّوا وما تقاعسوا، بل كلُّ منهم ذهب ليأتي به الذهب^٥، وزاب ليزداب، وكانوا في سكرة حرصهم كالجنانين. فلما دخلوا ربوعهم مراحًا، قالوا لأهلها أنعموا صباحًا، ثم قصّوا عليهم القصة، وهنّأوهم متبسمين. فصدّقوا قولهم الذين كانوا كمثلمهم في الجهالة ونظيرهم في الضلالة، وكانوا يتغنون فرحين. فنزعوا الحلبي من أعضاء نسائهم وآذان إمائهم وأناف بناقم وأيدي أخواتهم وأرجل أمهاتهم، وأشركوا في تلك التجارة نساءً أصدقائهم وأزواج أحبائهم، بل نسوان جيرانهم وعذارى أقرانهم، وغادروهن كأشجار خالية من ثمار. وغادر كل أحد بيته أنقى من الراحة، طمعًا في كثرة المال وزيادة الراحة. ثم رجعوا مستبشرين، ونبذوا الحلبي أمام يديه فرحين. فلما رأى المكّار امتلاء كيسه وانجلاء بؤسه، ورأى حمقهم وجهلهم، فرح فرحًا شديدًا، ووجد نفسه غنيًا صنيديًا، قال أعلم أنكم ذوو حظ عظيم ومن الفائزين، وستجتنون جنى عملكم وتعلون مطا جملكم، وتذكروني إلى أبد الأبدين.

ثم قال يا معشر الأخيار وأكباد هذه الديار، اعلموا أن هذا العمل من الأسرار، وقد وجب إخفاؤها من الأغيار، ومن أشرط هذه الرقبة قراءتها في الزاوية على شاطئ الوادي عند نهر جار في البادية، وكذلك علّمت من المعلمين، فهل تأذنونني أن أفعل كذا، وأرجع إليكم بذهب كأمثال الربّي، لترجعوا إلى شركائكم بمال ما

٥ سهو، والصحيح: "ليأتي بالذهب" أو "ليأتيه بالذهب". (الناشر)

رأته عين الناظرين؟ وسترون قناطيراً مقنطرة من الذهب الخالص والمال المليح، ولا ترون نظيره في التنجية إلا كفارة المسيح، ويكفي لدينكم الكفارة ولدنياكم هذه الإمارة، فنجوتم في الدارين من تحريك اليدين ومن جهد الجاهدين. قالوا الأمر إليك والقلب لديك، وإنك اليوم لدينا مكين أمين. قال طوبى لكم ستفتح عليكم أبواب المسرة وتعطى لكم مفاتيح الدولة، بل أعلمكم رقيتي، لكيلا تضطربون ♦ عند غيبيتي، ولكي تكون لكم دولة عظمى ومُلك لا يبلى. قالوا لا نستطيع إحصاء شكري وإنك أكبر المحسنين. قال حير، ما علمتُ أحداً هذا العمل من قبلكم، ولا أعلم بعدكم قوماً آخرين. فسألوا عنه سرّ هذا التخصيص وحكمة تحديد هذا التبصيص، فأقسم بالأقنوم الذي يجير الجاني أنه ضاهى في هذه العادة بالأقنوم الثاني، وجعلهم كاليسوع من المتفردين. ثم شمر ذيله ليطير كالعقاب، فغدا بإزعام الذهاب ولا اغتداء الغراب، وقال لهم عند الفرار: يا سادات الأمصار وصناديد الديار، سأتيكم إلى نصف النهار، فانتظروني قليلاً من الانتظار، ولا تأخذكم ♦ شيء من الاضطرار، فإن الرقية طويلة والبُعْية جليلة، والطبيعة علية، والمسافة بعيدة، والبرودة شديدة، وما كنت أن أشقّ على نفسي في هذا الضعف والنحافة، وما أجد في بدني قوّة قطع المسافة، وإني نبذت

♦ سهو، والصحيح "تضطربوا". (الناشر)

♦ سهو، والصحيح: "يأخذكم". (الناشر)

عُلِقَ الدنيا كلها، وتركت كُثْرَهَا وَقُلَّهَا، وما يسرني إلا ذكر المسيح رب العالمين - لعنة الله على الكاذبين - لكني كلّفت نفسي لكم بما رأيتم من قبائل الشرفاء ووجدتكم كأطلال الأمراء وفي الضراء بعد النعماء، وبما تحققت المصافاة وانعقدت المودات، فهاجت رحمتي وماجت شفقتي، وجذيتي بَخْتِكُمُ الحمود ونجمكم المسعود، فأردت أن أجعلكم كالسلاطين. وسأرجع إليكم مع الجنى الملتقط، فانتظروا بالقلب المغتبط، سترون بيضاء وصفراء كحليّة جميلة زهراء، وأوافيكم كالمبشّرين المستبشرين. فذهب وتركهم مغبونين. فما فهموا أنه غرّ وطلب المفرّ، وفرحوا بتصور حصول المراد، ولبثوا يرقبونه رِقْبَةَ أَهْلَةِ الأعياد، وينتظرونه انتظارَ أهل الوداد متنافسين، إلى أن تلبست الشمس كالمندمين نقابها، وسوّدت كالحزوين ثيابها، وألغت كالمخدوعين حسابها، واختفت بوجه مصفرّ كالمنهويين.

فلما طال أمد الانتظار، وتجاوز الوقت من موعد المكّار، وأضاعوا في رِقْبَةِ الزمان، وبانَ أن الرجل قد مانَ، نهضوا كالجنانين، وسعوا إلى كل طرف مفتّشين، وعدّوا إلى اليمين واليسار مرتعدين، بتصوّر الحلي الكبار وفكر هتك الأستار. فلما استيأسوا منه كالثكلى سقطوا كالموتى، وأكبوا على وجوههم باكين، وعرفوا أنهم قد خدعوا بل جدعوا ومن القوم قدعوا، فضربوا على خدودهم قائلين: يا ويلنا إنا كنا منهويين مخدوعين. ثم ألقوا على رؤوسهم

غبار الصحراء، وصعدت صرخهم إلى السماء، وجمعوا الناس حولهم من شدة الجزع والفزع والبكاء. فجاءهم القوم مُهرَعين، فسألوا عن بلاء نزل وجرح ابتزل، وعن مصيبة مذيبة للقلوب وداهية مهيجّة للكروب، واستفسروا من تفاصيل المصيبة وكيفية القصة. فعافوا أن يبينوا خوفاً من طعن الناس والخزي بين العوام والخواص، ومع ذلك كانوا صارخين. فقال القوم ما لكم لا ترقأ دمعكم ولا تسكن زفرتكم، أظلمتم من قوم عادين؟ لم تستروا الحقيقة وتزيدون الكربة، ألا ترون إلى لوعة كرب المحبين؟ فصاحوا صيحة المغبون، واستحيوا من إظهار الكمد المكنون، ثم بينوا القصة وأبدوا الغصة، وما كادوا أن يبينوا، ولكن عجزوا عن إصرار المصريين. فلأمهم كلُّ أحد من العقلاء، ومطرت من كل جهة سهامُ العُدلاء، فنكسوا رؤوسهم متندمين. وقال المعيرون يا معشر الحمقاء وأئمة الجهلاء، أستم علمتم أنه جاءكم فقير بادي الخذلان، وعليه بُردان رثان كالعُثان؟ فمن كان في أطمار كيف يهبكم رياشَ أفخار، وينجيكم من أسرٍ أوطار؟ أما رأيتم عليه أثر الإفلاس، فكيف شُغفتم به.. أكنتم أنعاماً أو من الناس؟ ثم كانت هذه الخرافات بعيدة من قانون القدرة وخارجة من السنن المستمرة، فكيف قبلتموها وقائلها إن كنتم عاقلين؟ وكيف نسيتم تجارب الحكماء، أكنتم أنعاماً أو كنشوان الصهباء مخمورين؟ وكيف ظننتم أنه صدوق أمين مع أنه خالف الصادقين أجمعين؟ أما رأيتم أطماره؟ أما شاهدتم إزاره؟ أما

سمعتم من قبل قصصَ المكّارين؟ فلا تلوموا أحداً ولوموا أنفسكم. إنكم قد أهلكتم نسوانكم وإخوانكم وخلانكم وجيرانكم، فليبيكِ على فهمكم من كان من الباكين.

هذا مثل المسيحيين وكفّارتهم وجهلهم وغرارتهم، وما قلنا ذلك إلا نصيحةً لله لقوم جاهلين. ولكن المسيح والصالحين من أصحابه مبرّؤون من ذلك المثل وخطابه، وما نتوجه إلا إلى الخائنين الذين سيرتهم سيرة السرحان ولبوسهم لبوس الرهبان، وقد تبينَ انكفأؤهم وبرحُ ليلائهم، وتبين أنهم من الضالين المضلين. ومن وقاحتهم أنهم مع جهلهم يصولون على الإسلام، ويضلّون طوائف الأنام، ويشيعون أنواع الآثام، وكانوا قوماً دجالين. فليندموا على بادرة الاعتقاد، وليخافوا خسراتهم يوم المعاد، وما أنا إلا نذير من رب العالمين.